مسابقة الجامعة المصرية لطلبة السنة التوجيهية

« أهل الكهف »
لتوفيق الحكيم
للدكتور زكي مبارك

— ٨ —

تمهيد

الأستاذ توفيق الحكيم مَدِينٌ فى وجوده الأدبيّ لرواية « أهل الكهف » فهى الحجَر الأول فى بناء شهرته الأدبية . وقد ظهرت أول مرة سنة ١٩٣٣ فظهر معها المؤلف أول مرة سنة ١٩٣٣ ولم يكن له قبل ذلك فى حياة الأدب تاريخ

وكلمة اليوم تشريحٌ لتلك الرواية بلطف ورفق ، فما أحسبها شُرِّحتْ قبل اليوم ، لأنها استُقبِلتْ بإعجاب ، ولأن المؤلف أسرع فشغل عنها النقاد بمحصول وفير من الرسائل والأقاصيص ، فإن انتهى التشريح إلى أنها رواية ضعيفة فلا بأس ، فتلك بأكورة المؤلف ، والبواكير لا تسلم من العطب فى جميع الأحايين ، وإن ظهر أن المؤلف لم يستعد لموضوع الرواية كل الاستعداد فلا استغراب ، لأنه رجلٌ قليل الجَلَد على مصابرة المراجع والأسانيد ، وإن وصل بنا الدرس إلى أنها رواية جيدة على ما بها من مآخذ وعيوب فذلك هو المصير المنتظر لأثر يصدر عن أديب موهوب مثل توفيق الحكيم

أهل الكهف

هى مسرحية شائقة ، مُثِّلت أول مرة فى القاهرة سنة ٩٣٥ وبها افتُتِحتْ أعمال « الفرقة القومية المصرية » ثم نُقلت إلى الفرنسية سنة ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى للأستاذ جاستون ڤيتْ مدير دار الآثار العربية

ولم يتسع الوقت للبحث عن النسخة الفرنسية ، للاستفادة بما فى ذلك « التمهيد » من معارف تاريخية ، فلم يبق إلا النظر فى هذه المسرحية بدون التفات إلى ما كتب ذلك المستشرق المفضال

ومن المؤكد أن المتسابقين لن يُسألوا عن ذلك التمهيد ، لأن المقرر هو النسخة العربية ، ولأنه بعيدٌ عن بعض أعضاء لجنة الامتحان ، فلن يكونوا جميعاً من قراء لغة هوجو ولامرتين

أصحاب الرقيم

خصَّص الأستاذ توفيق الحكيم صفحة من كتابه لآية قرآنية شريفة منتزعة من سورة الكهف ، فكان معنى ذلك أنه اعتمد على تلك السورة فى زَخرفة ذلك التاريخ ، والتاريخ المزخرف هو ما يسميه الفرنسيون Histoire romancée وكان معنى ذلك أيضاً أنه يجب على توفيق الحكيم أن ينظر فى القرآن وتفاسير القرآن قبل أن يزخرِف ذلك التاريخ ، فماذا صنع ؟

قال الله تعالى فى أصحاب الكهف والرقيم :

« سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم ، رجماً بالغيب ، ويقولون سبعةٌ وثامنهم كلبهم »

وبمراجعة التفاسير نعرف أن أصحاب القول الأول هم اليهود ، وأصحاب القول الثانى هم النصارى ، وأصحاب القول الثالث هم المسلمون

وبمراجعة المسرحية « التوفيقية » نرى المؤلف اختار قول اليهود فجعل أصحاب الكهف ثلاثة رابعهم كلبهم ؛ وبمراجعة « حمار الحكيم » نرى المؤلف يتخاذل ويتهافت حين يسمع الخفيف « المبود » لأوراق « البنكنوت » فهل يمكن القول بأن هذا المؤلف « المسلم » له أجداد تنسَّموا أرواح الأصائل والأسحار فى أرض الميعاد ؟

ما يهمنى أن أحقق نسب توفيق الحكيم فى هذا الحديث ، وهو إن سمحت الدعابة نسبٌ مدخول ، وإنما يهمنى النص على إساءته لفنه حين اختار قول اليهود

أصحاب الكهف فى الرواية اليهودية ثلاثة ، وهم فى الرواية الإسلامية ثمانية ، فأىُّ الروايتين أنفع للفنان ؟

لو فكَّر توفيق لأدرك أن المجتمع الذى يكوّن من ثلاثة أضيق من المجتمع الذى يكوّن من ثمانية ، لأن المجتمع الأول

لم يصور غير ثلاث أواصر : آصرة الأسرة ، وآصرة الحب ، وآصرة المال البسيط الذى يحرص عليه راعى الغنم فى حاله الرقيق

ولو أن أصحاب الكهف كانوا ثمانية — كما تريد الرواية الإسلامية — لاتسع المجال أمام المؤلف ، فخلق من مشكلات المجتمع فى نواحيه الاقتصادية والسياسية والذوقية آفاقاً رحيبة يجول فيها قلم الباحث ويصول

ثم ماذا ؟ ثم وقعت غلطة فى اسم الراعى ، فهو « يمليخا » عند صاحبنا توفيق ، ولكن يمليخا فى التفسير « الكشاف » وفى حاشية الجمل على « تفسير الجلالين » لم يكن راعياً ، وإنما كان من رجال « البَلاط » ، بلاط الملك الوثنى « دقيانوس » ، أما الراعى فاسمه « فلسطيونيس »

ثم ؟ ؟ ثم سكت توفيق الحكيم عن اسم الملك الذى بُعث فى عهده أصحاب الكهف ، فلم يعرف إلا أنه « الملك » ، ولكن أى ملك ؟ لو رجع إلى التفاسير لعرف أن ذلك الملك كان يسمَّى « بيدروس » والنصُّ على اسمه أوجب ، لأنه ورد فى القصة مقروناً بالتعظيم والتبجيل

العقدة المنسية

وهنالك « عُقدة منسية » فى رواية توفيق الحكيم هى عُقدة البَعث ، وتلك العقدة تنقل القصة من وضع إلى وضع ، فنشرُ أهل الكهف كان مصادفة عند توفيق ، ولكنه فى الرواية الإسلامية وقع فى أعقاب أزمة عقلية بين رجال « بيدروس » هى الخلاف حول بعث الأرواح والأجساد ؛ وهو خلاف كان كثير النليان فى تلك العهود

ولكن ما قيمة هذه العُقدة المنسية ؟

لهذه العقدة قيمةٌ عظيمة جداً ، فنهاية القصة عند توفيق هى انتصار الحب ، أما غاية القصة إذا روعيتْ تلك العُقدة فهى انتصار الإيمان ، وتلك هى الغاية الأساسية إذا أردنا الوفاء لمكان القصة من العقيدة ومكانها من التاريخ

بطلة القصة عند توفيق هى « امرأةٌ أحبتْ » وكان الواجب أن تكون « امرأة آمنتْ » لو كان توفيق من أصحاب الفكر العميق

الجواب

تحت أى تأثير كتب توفيق الحكيم هذه القصة ؟

عندنا ثلاثة فروض :

الفرض الأول هو قوة الشهوة ، والفرض الثانى هو قوة الحب ، والفرض الثالث هو قوة الإيمان

أما الشهوة فلم يصورها توفيق الحكيم ، الشهوة العارمة التى تزلزل أعصاب الرجال

وأما الحب فقد عرض له توفيق بأدب ولطف ، كما يصنع المذريون الضعفاء

بقى الإيمان ؛ فماذا صنع توفيق فى وصف الإيمان ؟ وماذا صنع فى تشريح أوصال الارتياب ؟ وأين المعركة التى أثارها بين نسائم الهدى وزوابع الضلال ؟

« أيها الفديس ! أيها الفديس ! »

تلك أنشودته فى التذكير بالنشوة الروحية ، فأين أنشودته فى التذكير بالنىّ والرِّجس والإثم والفتون ؟

المحصول الفنى لصاحبنا توفيق يرجع إلى صنف واحد هو البهرجة الروائية ، أما التعمق فى الفكرة ، فهو غرضٌ لا يصل إليه إلا بمجهود شاق .

لو كان التوفيق من حلفاء توفيق لأدرك أن من المستحيل أن تكون بريسكا لم تحسَّ الحب إلا أول مرة عند لقاء ميشلينا ، وقد نشأت فى أحد القصور الرومية ، وهى قصور أقيمت على قواعد من طغيان الأهواء والأحاسيس ، وكان من الخير لفنه أن يخضعها لذلك الطغيان

ولو كان التوفيق من حلفاء توفيق لجعل موت ميشلينا فى القصر لا فى الكهف ، فالقصور هى ديار العطب ، أما الكهوف فهى ديار الأمان

وكان من همّ توفيق أن يجرّد الراعى من جميع العواطف ، فما سبب ذلك ؟

هنا عُقدة إنسانية لم يَفطن إليها توفيق ، وهى احتباس العواطف فى النفوس الفطرية ، فما الذى كان يمنع من تشريح أهواء العوامّ لذلك العهد ، وهم صورة مكررة فى التاريخ ؟

منع من ذلك أن الأستاذ توفيق الحكيم لم يحدد الغاية من تلك المسرحية ، وإنما حصر همه فى الرقش والتزيين والتهويل ، فكان ما أراد !

والمعروف عند مؤلفى المسرحيات فى أكثر الشعوب أن اللون المحلى La couleur locale يُنتصب له ميزان ، فأين اللون المحلى فى مسرحية أهل الكهف ؟ هل شعرنا بأن عهد دقيانوس يخالف عهد بيدروس — الذى جهله توفيق — إلا فى توافه الشئون ؟

الخلاف بين العهدين يرجع إلى اختلاف الملابس والنقود ، فأين الخلاف بين العادات والتقاليد وبينهما ثلثمائة سنة وتسع ؟

وأين الخلاف بين ألوان الحقائق وألوان الأباطيل ، بعد اعتراك الأهواء والآراء فى تلك العهود ؟

كانت المسيحية لعهد دقيانوس تعانى اضطهاد الوثنية ، وقد فصّل ذلك توفيق ، وهو معنى سجله القرآن من قبل ، فكيف كانت المسيحية فى عهد بيدروس ؟ لقد سكت عن ذلك توفيق سكوت أهل الكهف بعد الرقاد الأخير ، مع أن الكلام فى هذا الموطن أنفس من السكوت ، فقد كانت المسيحية تحولت إلى معضلة عقلية ، بعد أن كانت نفحة روحية ، ولكن توفيق نسى أن ميدان هذه القصة مَسال فكر قبل أن يكون مجال خيال

الظاهر أن الأستاذ الحكيم لم ينظر إلى عصر الرواية من الوجهة العقلية والدينية ، وأريد العصر الذى وقع فيه البعث ، وهو الفيصل فى مكان تلك القصة من مترَك الشك واليقين .

وقد اهتم توفيق بأن يجعل فى أصحاب الكهف رجلاً مُقلقل الإيمان بالمسيحية — وهذا ينافى الاعتقاد الموروث — فماذا استفاد من هذا التشكيك ؟

كنت أنتظر أن يستفيد من هذا التشكيك فيقدم لنا بعض ملامح الوثنية على لسان ذلك المؤمن المرتاب ، ولكنه لم يصنع ، فلأية غاية فنية أو عقلية أثار ذلك التشكيك ؟

كان من واجب توفيق أن يشرح تلك الوثنية فى صفحة أو صفحتين ، ولو على طريق الغمز والتجريح ، لأن الوثنية لم تُخلَق من العدم ، وإنما هى سورة من أهواء النفوس وأحلام القلوب

توفيق لم يصنع شيئاً ذا بال فى هذه المسرحية . لم يصنع شيئاً يضيفه إلى أقطاب الفكر ، وإن كان صنع شيئاً يضيفه إلى أرباب الخيال

وهنالك فجوة عميقة فى صحة التخيل ، فأصحاب الكهف بُعِثوا فى مدينة اسمها طرسوس ، وكان يجب أن يبلبلهم المؤلف فيذكّرهم بأن مدينتهم كانت تسمّى أفسوس ، وقد تغير ما فى المدينة من ملابس ونقود ، ولم يتغير قصر الملك ، فكيف وقع ذلك ؟ وكيف جاز أن يجد مبشلينا غرفة الزينة على عهدها المألوف قبل يومين وقد مرت عليها ثلاثة قرون ؟ وكيف جاز لمبشلينا أن يحلق ذقنه بيديه كما يصنع توفيق الحكيم فى هذه الأيام ؟ ومتى كان حلق اللحية من مظاهر التزيُّن عند القدماء ، ولا سيما المتطلعين منهم إلى منازل التكريم والتشريف ؟

كان توفيق الحكيم يحتاج إلى هذا الدرس ليعرف أن المسرحيات لا تولد فى أيام معدودات ، وقد ترفقت به كل الترفق ، لأنه من أعز أصدقائى ، وللصداقة حقوق

توفيق الحكيم فى أهل الكهف

يتمثر المؤلف فى الفصل الأول ، وهو تمثُّر توجبه وضعية الرواية ، كما يعبِّر أهل العراق ، فأصحاب الكهف يستيقظون من سبات عميق ، يستيقظون على أهواء كان لها فى حياتهم وجود قهّار ، ولكنها أهواء مزعزعة الرسوم والحدود ، بفضل ذلك السُّبات العميق

فإذا كان الفصل الثانى رأينا المؤلف يصحو مع أهل الكهف فيقرر أن « قلب المرأة يتسع دائماً لله وغير الله » وأن « القصة ضمير الشعب ، وأنه لا يمكن للبشرية أن تختلف حين تتلاقى فى قصة واحدة على اختلاف الديانات والأجناس ، فنعرف أنه انتفع بكتاب لامرتين فى تشريح سِفر أيوب . ثم نراه يقرر أن ليس للحب عُمر فنعرف أنه انتفع بكلمة الفرنسى الذى سُئل عن عمره فأجاب : J'ai l'âge de mon coeur ثم نراه يقول : « أستودعكما الله هانئين بشباب قلبيكما » فنعرف أن هذا من ذاك !

فإذا كان الفصل الثالث رأينا توفيقاً كبير العقل حين يقرر

أن الحياة المطلقة المجردة من كل ماضٍ ومن كل صلة ومن كل سبب هي أقل من العدم ، وهل هنالك عدَم ؟ العدم الحق هو الحياة المجردة من التاريخ

ثم رأيناه يقرر أن الحب أقوى من العقيدة ومن الدين ، لأن عقيدة الملائكة لم تكن إلا فناً من الحب المصوف

ثم نرى غيرة بريسكا من فتاة تقطَّع بها الزمن إلى أبعد من ثلاثة قرون فنعرف شيئاً من خلائق النساء

فإذا كان الفصل الرابع عرفنا من توفيق أن « الحلم أحياناً كالفن ، لا ينقل الحقيقة كما هي ، بل يسبغ عليها من عبقريته جمالاً لم يكن ، أو بشاعة لم تكن » وعرفنا أن « القلب أقوى من الزمن » وأنه لا يهمّ المرأة أن تكون قدّيسة ، وإنما يهمها أن تكون « امرأة أحبت » فنفهم أن الحب في قلب المرأة أعمق جذوراً من الدين ، وإلا فكيف صح أن تخاطب الراهبة فاطر السموات بمثل هذا التعبير : « زوجي العزيز ! »

وصدق شوقي حين قال . « الحياة الحبّ ، والحب الحياة » وحين قال :

سيطرَ الحبُّ على دنياكمُ كل شيء ما خلا الحبَّ عبَثْ

أما بعد فذلك توفيق الحكيم في أهل الكهف

هو أديب موهوب تناغيه الحياة من حين إلى حين . هو أمشاج من الوجد المقهور والحب الدفين . هو قيثارة رنانة لأحلام الشباب والكهول ، وإن كانت قيثارة لا تعرف أصول الأنغام ، لأنه كاتب بلا أسلوب ، ولو كان توفيق من أصحاب الأساليب لأدّى للفكر والبيان خدمات تعزّ على من رامها وتطول

كم تمنيت وتمنيت أن يكون توفيق الحكيم من كتاب اللغة العربية !

لو كان هذا الرجل كاتباً لأتى بالأعاجيب ، لأنه قوى الملاحظة وقوى الإحساس إلى أبعد الحدود ، ولكن التعبير يعوزه في أدق الشؤون ، والتعابير القوية لم تكن ولن تكون إلا شاهداً على عظمة الفكرة وقوة الروح

عيب توفيق الحكيم أنه نشأ مدللاً بين كتاب هذا الجيل ، فلم يتذوق صيال الأحقاد والأهواء والأباطيل

ألم يشهد على نفسه في مجلة الرسالة بأنه مَدين لكاتب لم يعرف قدره في جميع الأحايين ؟ ومن ذلك الكاتب يا توفيق ؟

حظك بيديك ، يا ابن آدم ، فاعرف نفسك بنفسك ، ولا تعتمد على غير واجب الوجود

ثم أما بعد فقد قضى توفيق عشر دقائق وهو ينمّق العبارة التي يهدى بها إليّ «أهل الكهف» فأتت : « إلى الدكتور زكي مبارك إعجاباً بدراساته الصريحة ونقده الحر للأدب الحديث »

فكيف ترى مقامي منك ، يا توفيق ؟

هل هديتك ؟ هل أضللتُك ؟

تلك كلمة الحق فيك ، فغيّر ما بنفسك لألقاك وأنت أديبٌ سوّال الفكر ، جوّال البيان

والله يحفظك ويرعاك للصديق الوفي الأمين

زكي مبارك

الرسالة في سنتها التاسعة

على الرغم من استحكام أزمة الورق ومواد الطباعة وارتفاع أثمانها الى عشرة أضعاف ، ستستمر الرسالة على نظام العام السابق من التخفيض والتقسيط والإهداء مع المشتركين القدماء . أما المشتركون الجدد فيؤدون الاشتراك كاملا مقسطاً أو غير مقسط . ومن المقرر أن المشتركين القدماء لن يتمتعوا بمزايا الاشتراك المخفض الا اذا بدأوا اشتراكهم من نصف ديسمبر الى آخر يناير سنة ١٩٤١ ، ولن يمد الأجل بعد ذلك .